"الانتماء في الشعر العربي القديم"

الدكتور مرزوق بن صنيتان بن تنباك

الانتماء في الشعر العربي القديم

كانت للعرب في الجاهلية وفي الاسلام مآثر ولها انتماء اصيل في انسابها والتزام قوي في دلالات تلك الأنساب وما يترتب عليها من علاقات اجتماعية حصيلتها النهائية تعميق الولاء الكامل إلى تلك الأنساب والفخر بها وبما يذكره العرب المنتمون من صور الأحداث التي تبعث في نفوسهم قوة الذكر الطيب وتكرر العلاقات الاجتماعية وتجعل الشاعر يفخر بنسبه . وسوف يتحدث هذا البحث عن الانتماء في الشعر بشيء من التوسع آخذاً الشاهد الذي يخدم ظاهرة الانتماء ويقررها ويفخر به . وسيفحص البحث دلالة الانتماء الاجتماعية وقوته في ذاكرة الأجيال وما يترتب عليه من قيم معنوية وما يبعث في النفوس من ضروب الكرامة والشمم . وقد كان محور انتماء العربي ومركز فخره قائماً على ثقته بنفسه واعتزازه بعراقة النسب الذي ينتمي إليه . ولهذا السبب جعلت العرب الأنساب أساس التكوين الاجتماعي والسياسي وربطت بين صلة الرجل بنسبه وقوة انتمائه إلى هذا النسب ومشاركته لكل الذين يجتمعون معه فيما يزعم أنه مرجعية النقاء الأجداد والآباء الذين ينتمون إليهم جميعاً فاهتمت كل قبيلة من قبائل الجزيرة العربية في الجاهلية وفي الإسلام ايضاً بتحديد الروابط بين ابنائها وحرصت ألا تترك في روابطها النظرية وهناً أو ضعفاً يخل في عملية الانتماء الذي تعده بالغ الأهمية لكل فرد في القبيلة مهما كانت صلته بها . فقامت نظرية الأنساب عندهم المقام الأول وقد أشار الأستاذ الدكتور إحسان النص في مقدمة كتابه القيم العصبية وأثرها في الشعر الأموي إلى اهتمام الأمة العربية بأنسابها قائلاً [1] : « لا نكاد نعرف أمة من الأمم عنيت بأنسابها عناية الأمة العربية بها، ولا نعرف أمة عاش ماضيها في حاضرها ، وكان له الأثر الفعال في توجيه حياتها الاجتماعية والسياسية والأدبية ، كالأمة العربية . آية ذلك كثرة ما تحصيه

---

(١) العصبية القبلية ، ص ١٣ .

المراجع من المؤلفات التي تناولت أنساب العرب وترجمت لمشاهير علماء النسب ».

وقد صدق الصدق كله فإن العرب جعلت من علم النسب بناء اجتماعياً وتكويناً ديموغرافياً كاملاً وأقامت على أساس هذا التكوين صلات سياسية ونشأت تكتلات بشرية عظيمة غيرت واقع الدول والممالك في الإسلام ، وأقامت الحروب والأيام في الجاهلية على مبدأ قناعتها بروابط النسب وصلته بحياتهم وانتماء كل فرد فيهم إلى هذه الرابطة إنتماء جعله يتخذ المواقف الحادة في بعض الأحيان على ألا تهتز قناعته بصحة ما يعتقد أو يختل انتماؤه الذي بناه خيال خصب تتشابك به الحقيقة وشبه الحقيقة . وليس غرض هذا البحث مناقشة حقيقة الأنساب ولا الحديث عن الآراء حولها ومدى القناعة بصحتها أو عدم ذلك .

لأن ذلك أمر متجدد منذ الجاهلية حتى العصر الحاضر وربما المستقبل ، والحديث عنه يخضع لتصورات اجتماعية وتقاليد وأعراف نشأت عند العرب واعتمدت معارف علمية ونظرية اتفق عليها رأيهم وأكدها فهمهم لوظيفة الأنساب، وقناعتهم بمدلولها والانتماء إليها .

وأصبحت عامل اتصال متفق عليه . فجاء الشعر يعبر عن الانتماء عند الشاعر ويشرح رؤيته الخاصة وقناعته بما يعتقده سواء كان اعتقاده صواباً تدعمه الأدلة والبراهين أو كان خطأ وتنظيراً لا أساس له من الصحة لأن المعول في رأي الشاعر على ما يظنه ويعتقده وليس على ماهية الحقيقة إلا أنه من المناسب الإشارة في هذا الصدد إلى دراستين علميتين حديثتين عن الأنساب لخصتا تلخيصاً غير مخل مجمل نظرية النسب عند العرب منذ محمد ابن الكلبي وابنه هشام إلى آخر ما كتبه أعلام المستشرقين في العصر الحاضر فأجملت الدراستان الرؤية الشمولية العامة لما صدر عن النسابين من آراء حقيقية أو يشوبها الخيال في تشكيل النسب العربي وما يدعيه النسابون ويعتقده العرب . إحدى هاتين الدراستين تاريخية علمية جمعت وأحصت وناقشت ما يقوله علماء الأنساب من وجهة النظر التاريخية وهي بحث نشر في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة (فؤاد

الأول) المجلد الرابع عشر الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٢ م للأستاذ عبد الوهاب حمودة ، واحتلت الصفحات من ١١٩ إلى ١٥٠ من ذلك الجزء .

أما الدراسة الأخرى فأدبية راقية الأسلوب واعية الإحاطة في شمولية النسب ونظريته قامت على استقراء غير متعجل لمفهوم العرب للنسب واستقراء مثله لآراء القدماء من النسابين العرب والمحدثين من المستشرقين وقد جاءت هذه الدراسة في مستهل كتاب قيم للأستاذ الدكتور إحسان النص وهو « العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي » ، فناقشت جوانب الأخذ والترك فيما يراه العرب ويعتقدونه من الأنساب وناقشت رأي المستشرقين وحققت فيما يدعيه النسابون وما يرفضونه وفي هاتين الدراستين ما يسلط الأضواء الكاشفة على نظرية النسب عند العرب ومدلوله وقيام العلاقات والوشائج المترتبة عليه في نظرهم .

وفي الإشارة إلى هاتين الدراستين ما يغني عن تكرار الآراء حول الأنساب وما قيل عنها نظرياً . ويدفع إلى أن يعمد الباحث إلى الموضوع الأساسي وهو الفخر والانتماء في الشعر وعند الشعراء خاصة الذين يتعاملون ذهنياً مع دلائل النسب النظرية بغض النظر عما يمكن أن يكون قد ادّعاه العلماء أو حققوه في الواقع من صحة أو خطأ . والانتماء والفخر به موضوع قريب الصلة بالنسب ووثيق الارتباط به والعرب أمة يبعثها حب المجد والتطلع إليه وإلى القول به وترتفع بأفعالها وتشيد بأمجادها وتبالغ كل المبالغة إذا حققت مكسباً معنوياً أو أرغمت خصماً عنيداً ولكنها أيضاً تلوم القصر ولا تجامل في حال الضعف أو الانكسار. وقد لام بعض الشعراء قومه عندما لم يحسنوا في الحرب وانهزموا فيها فزعم أنهم لم يجعلوا له حجة بالفخر أو الإشادة ، فقال (١):

ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول زرع خلية فاستبطرت

---

(١) الحماسة ، جـ ١ ، ص ١٥٧ .

فجئت إليّ لنفس أول مرة وردت على مكروهها فاستقرت
ظللت كأني للرمـــــاح دريّة أقاتل عن أبناء جرم وفرت
ولو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

وهو كناية أوضح من الصراحة تقرر اللوم لقومه ولا تجاملهم أو تعتذر عنهم عندما قصروا في موقف الحرب وخانتهم الشجاعة ، فما كان من شاعر القبيلة إلا أن أعلن رأيه وأنّب قومه ووصفهم بأنهم أسكتوه وقطعوا لسانه ، وألصقوا عنقه بالأرض بفعلهم وجبنهم .

وقال مثل ذلك أيضاً شاعر آخر رأى فعل قومه فلم يرضه وبلى صبرهم فلم يحمده لهم وكان هو واحداً منهم فلم ينتحل الأعذار لنفسه وقومه في موقف أخزاه فعلهم ولكنه لامهم على تقصيرهم ومدح خصومهم وذكر صبرهم - أي الخصوم - وحسن بلائهم فقال (١) :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ليالي لاقينا صداء وحميرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أصبرا

فقد صبر خصوم الشاعر على الموت فكسبوا المعركة ولم يصبر هو وقومه فخسروها فلم يمنعه ذلك من لوم قومه ونفسه وذكر ما فعل خصومه والثناء عليهم بما هم أهله ، ولم يجد نفسه وقومه كذباً ويدعي زوراً عندما عجزت أفعالهم عن تمجيدهم .

إن فخر الشعر العربي وانتماءه قرينان لا يفترقان ولا يذهب بهما بعيداً عن أمجاد القبيلة والأسرة والآباء وإن علو ثم يتبع ذلك الانتماء العام للقبيلة فيفخر بها ويمجد فرسانها ويذكر أفعالها معتزاً كل الاعتزاز بما يرثه من أمجاد وما يدافع عنه من أحساب القبيلة في حال الشمول للانتماء العام الذي يعد ميداناً واسعاً

---

(١) الحماسة ، جـ ١ ، ص ١٥٦

للغة الشعر ومصدراً غنياً يستمد منه قوة شاعريته فينطق بأمجاد آبائه وأسلافه وينطق بأيام قبيلته وغزواتها وينتمي في كل موقف يوجب عليه حق الانتماء فيذكر في مقاطع شعره جانب الفخر في موقف من المواقف ويذكر في موقف آخر صلاته الشخصية وانتماءه الذاتي الذي ينظر إليه على أنه كينونته وجزء من شخصيته لا يستطيع الاستغناء عنها ولا ينحصر انتماؤه في العلاقات الاجتماعية المحدودة في الحاضر ولكنه يتجاوز به إلى الماضي كله فيضعه بين يديه ويشكل منه صورة حاضره الذي يريد وسمه للناس على الشكل الذي يرضيه وتطمئن به نفسه فلا يقلق منه ولا يخزى به . وقد جاء الانتماء في اللغة بمعنى الارتفاع إلى النسب المطلوب الذي يحرص الإنسان على التعلق به والارتقاء إليه ليرتفع مكانه ويعلو شأنه فقال القاموس في مادة « نمى » (١) « نميته إلى أبيه عزوته ونسبته ، وانتمى هو إليه ، انتسب وفلان ينمي إلى حسب وينتمي ، يرتفع إليه وانتمى فلان إلى فلان إذا ارتفع إليه في النسب ونماه جده إذا رفع إليه ونسبه ، ومنه قوله » نماني إلى العليا كل سيمدع .« وكل ارتفاع ، انتمى » . هذا هو معنى الكلمة اللغوي وقد اتخذتها العرب وجعلتها أهم أسباب الانتماء والرفعة والرقي إلى مدارج الكرم والنسب والحسب وعمدت إلى الرجال الكرام في سلسلة أنسابها فخلدتهم وانتمت إليهم وألحت على انتمائها في كلا طرفي الانتماء الأول الانتماء إلى الآباء والأجداد من سلسلة النسب القريب ، والآخر الانتماء إلى الجذم كله أو القبيلة وشاهد المثل الأول قول خفاف بن ندبه(٢):

أنمي إلى مجد أجداد لهم عدد مللذين لوطء الحق أزوال

ومثل الثاني قول امرئ القيس (٣) :

---

(١) اللسان ، مادة « نمى »

(٢) شعر خفاف بن ندبه ، ص ٩٢ .

(٣) ديوان امرئ القيس ، ص ٣١٩ .

وكندة قومي ملوك البـــلاد فأنمي إليهم إذا ما انتميت
كرام المقاري حسان الوجـوه فلن يفضحون إذا ما اعتزيت

وكذلك يقول أنيف بن حكم النبهاني (١) :

لهم عجز بالحزن فالرمل فاللوى
وقد جاورت حيٌّ جديس رعالـــها
دعوا لنزار وانتمينا لـــطئ كأسد الشرى إقدامها ونزالها

فقد ذكر كل شاعر في الشعر أصالة الانتماء وفخر به وارتفع بشخصه إلى ماضٍ باذخ في المجد والنسب يرى أنه يعينه على ما يريد من أسماع الآخرين فخره ومجده ثم الإقرار له بما يدعي . وقد جاء من شعر أمرئ القيس بيت آخر في المعنى نفسه ، يقول فيه (٢) :

إني امرؤ من خير كنـــدة لست من اشرارها
من خيرها نسباً إذا تنمي إليّ أخيارهـــا

وأوضح ذو الرمة انتماءه في نسبه وفخره بجذمي معدن وعدنان ليعيد مطلب النفس إلى قوة الانتماء التي يزعم أنه يتكئ عليها ويحرز مجدها فيحقق في الانتماء إلى هذين الجذمين قوة معنوية تدفعه للفخر ، فقال (٣) :

أنا بن معدٍ وابن عدنان أنتمي إلى من له في العز ورد ومصدر

فكاثر بقومه ورفع انتماءه إلى معد وعدنان ليقيم رابطة الانتماء مع كل من ينتمي إلى معد وعدنان ، وقد فسر ما يريد من هذا الانتماء في بيت جاء في القصيدة مبيناً المراد مما يزعم (٤) :

إذا ما تمضرنا فما الناس غيرنا ونضعف أضعافاً ولا نتمضر

(١) الحماسة ، جـ ١ ، ص ١٧١ .
(٢) ديوان امرئ القيس ، ص ٣١٩ .
(٣) ديوان ذي الرمة ، جـ ٢ ، ص ٦٥٣ .
(٤) ديوان ذي الرمة ، جـ ٢ ، ص ٦٥ .

والمثقب العبدي يجد من مبررات المدح لأبي قابوس سبباً يجعل الممدوح محتاجاً إلى أن ينمي بمجده إلى الماضي الذي يقرر الشاعر أنه حق له وهو قمين به فيؤكده مرة تلو أخرى فيقول فيه (١) :

فإن أبا قابوس عندي بلاؤه جزاء بنعمى لا يحل كنودها

وجلت زناد الصالحين فمينه قدياً كما بذّ النجوم سعودها

ويمدح حسان بن ثابت رجلاً ويعزو فخره إلى شرف محتده لا يخزى بانتمائه ولا يتضاءل بذكر آبائه وأجداده فيقول (٢) :

بيدي أغر إذا انتمى لم يخزه نسب القصار سميدع مقدام

ثم يأتي انتماء الشاعر إلى ما هو أبعد من آبائه ونسبه فينتمي أو يدعي الانتماء إلى الحاد قبلي كبير أو الحادات قبلية كبرى تربط بينها علاقات من الأحلاف والصلات التي يتخيل العرب أنها عامل موحد . وقد انتمى نصر بن سيار إلى قيس عيلان وإلى خندف وفخر بهما وعزا نفسه إليهما جميعاً قائلا(٣):

أنا ابن خندف تنميني قبائلها للصالحات وعمي قيس عيلاناً

ولابد أن الشاعر الذي يفخر بانتمائه ويعدد آباءه وأخلاقه ومن يظن أن له بهم رابطة اجتماعية أو قرابة نسب سيبالغ في المدح ويحشد ما يستطيع حتى يظهر أمام السامعين في مظهر المدافع عن أحساب القبيلة وأنسابها وما يتعلق بها وسرعان ما يغضب لها إذا نالها ضيم أو نالتها عداوة قوم لا يمتون إليها بصلة القرابة والدم وهي الصلة التي تزعم كل قبيلة أنها متحققة بين أفرادها عن طريق النسب المشترك وقد جدّ الشعراء في تأصيل أنسابهم وانتمائهم وأعلنوا روابط هذه الانتماءات والأنساب وجعلوا الشعر شاهداً على مالهم من أسباب القرابة كما أشار

---

(١) شعر المثقب العبدي ، ص ٢٣ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ، ص ٤٢ .

(٣) جمهرة ابن حزم ، ص ١ .

إلى ذلك سلامة بن جندل في قوله [1] :

إلى قيم حماة الثغر نسبتهم وكل ذي حسب في الناس منسوب

ومثله قول جميل بن معمر إذ يقول [2] :

أنا جميل في السنام من معد في الذروة العليا ، والركن الأشد

ويقول حسان بن ثابت إنه أصيل النسب صالح الانتماء إلى الفرع الأشم من الأزد القحطانية :

إما سألت فإنا معشر نجب الأزد نسبتنا الماء غسان

ويمدح سراقة البارقي أحد أبطال قبيلته بارق فيجدها مناسبة أن يذكر فخره بهذا الرجل وذكره بنسب قومه بارق التي ينتمي إليها فيقول فيه [3] :

وكان له في ذروة الحي منصب وليس كمن عضّ القرا بالمشاعب

ولا خامل فيهم إذا ما نسبته ولكنه من بارق في الذوائب

وكلما تردد ذكر الشاعر للنسب برزت أمامه علاقات القرابة وموجبات الانتماء التي تجعله ابنا بارا لقبيلته معتداً بانتمائه كل الاعتداد مشيداً بها كل الاشادة يأخذ الأقرب فيذكره ويحدد علاقته به وقرابته منه ثم يأخذ الأبعد قليلاً فيذكره إما مستشيراً له بالنسب أو ذاكراً ما يمت به من صلة كما يقول أوس بن حجر [4]:

وخندف أقرب بأنسابهم ولكننا أهل بيت كثر

ومثله عند الطفيل الغنوي في قوله [5] :

إلى اليوم لم نحدث إليكم وسيلة ولم نجدوها عندنا بالتنسب

---

(١) ديوان سلامة بن جندل ، ص ١١٦ .

(٢) ديوان جميل بن معمر العذري ، ص ١٦٧ .

(٣) ديوان سراقة البارقي ، ص ٨٧ .

(٤) ديوان حجر بن عدي ، ص ٢٩ .

(٥) ديوان الطفيل الغنوي ، ص ٣٥ .

أو في مثل قوله في بيت آخر [1] :

إلى كل فرع من ذؤابة طي إذا نسبت أو قيل من ينتسب

وجرير الخطفى يذكر نسبه ويرفع إنتماءه إلى فرعين من قبائل تميم ذات السيادة والمروءة والمجد المؤثل فيفخر على خصمه ويقمعه بما لا يستطيع دفعه ويتغلب بالانتماء البعيد على ما يدعي الخصم من تواضع مكانة أبيه فيقول[2]:

أنا ابن فرعي بني زيد إذا نسبوا هل ينكر المصطفى أو ينكر القمر

إن الفخر بقرابة النسب والحديث عنه في العقل العربي يتسع في خيال الشعراء ويملأ مساحات كبيرة من وجدانهم وإذا تكلموا عنه وعن القرابة التي تربطهم به أخذت العلاقة بعداً ذهنياً في لغة الشعر حيث تسيطر فكرة الاتصال الذي لا يمكن قطع أواصره من العلاقات الضاربة في عمق التاريخ الاجتماعي والتكوين القبلي والذي قامت عليه القبيلة وارتبطت به وجعلته نسبها الذي لا تفرط فيه ولا تقبل عنه بديلاً وقلما يتخلى الشاعر عن تأكيد الصلات الأولى في بداية العهد الذي يحدده للنسب والفخر به والارتقاء إليه وهو يحمل في ذهنه دلالة خاصة ومفهوماً واضح الرؤية بين المعالم فيجسد الانتماء العريق ويشكله بدوائر ذات أبعاد متداخلة سهلة الاتصال فيستطيع الشعار أن يحصر نفسه في حال إلى أصغر تلك الدوائر وهي بؤرتها ومركز الانتشار فيها ويستطيع من جانب آخر أن يتسع في الانتماء إلى الإطار الشامل للنسب البعيد ، ولذا وجدنا من الشعراء من يأخذ انتماءه بالتدرج كالأب الأول والجد القريب ومنهم من يرتفع ويدوم فوق النسب البعيد ثم يقع حيث يرى أن ذلك يناسب الحديث الذي يعرضه من صلات القربى والانتماء وتكون الأجلام الكبرى للقبائل موضوعاً للفخر والذكر الجميل عندما يريد الشاعر أن يتحدث عن مجمل الأمجاد التي يفخر بها

---

(1) ديوان الطفيل الغنوي ، ص ٤٧ .

(2) ديوان جرير ، ص ٢١٥ .

أو يرتفع إليها في وجدان مستمعيه الذين يطربون لترديد شعره ويشاركونه معنى فخره ويجمعهم توسله في النسب البعيد فيعطي لنفسه المدى الذي يخدم غرضه من المدح إن كان مادحاً ، فيما يقول أو يخفف انغلاق المعنى إن كان في تردد هواه ذلك الانغلاق فيبدأ بما يريد عرضه من صور الفخر والانتماء فإذا كان الفخر بالشخص ، وجد طريقاً إلى هذا المراد فقال كما يقول المثقب العبدي [1] :

أنا بيتي من معد في الذرى ولي الهامة والفرع الأشم

أو يمدح غيره بما يحققه لنفسه كما في قوله [2] :

حجري عائديّ نسباً تم للمنذر إذ جلّى الخمر

وكذلك يعمد إلى الارتقاء في سلم النسب البعيد عند الضرورة حتى يعرف الناس هواه من الانتساب ويجمع إليه القبيل الكبير فيشاركه الفخر ويتعاطف معه نسباً وينهض لعونه حميّة كما في مثل قول قيس بن الخطيم [3] :

ويوم بعث أسلمتنا سيوفنا إلى نسب في جلم غسان ثاقب

ويتلاعب الشاعر بقدرته على وضع اللغة التي يعيد لها رونق الجمال في بناء الصلة والقرابة فلا يضطرب ولكنه يعلن الحد الأدنى من القبول الذي يرضيه عن نفسه في مدحه ويرضي عشيرته ويهيئ القبول نفسياً فيجمع بين فخره بنفسه وانتمائه لقومه كما تصور لنا الأبيات الآتية من شعر هدبة بن الخشرم العذري إذ يقول [4] :

إني من قضاعة من يكدها أكده وهي مني في أمان

ولست بشاعر السفساف فيهم ولكن مدره الحرب العوان

---

(١) شعر المثقب العبدي ، ص ٤٦ .

(٢) شعر المثقب العبدي ، ص ١٦ .

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٣٤ .

(٤) شعر هدبة بن الخشرم ، ص ١٣٤ .

سأهجو من هجاهم من سواهم وأعرض منهم عمن هجاني

وعبيد بن عبد العزى السلامي يجمع المجاداً كاملاً لقبائل اليمن في بيت واحد من الشعر لا يزيد عليه حتى يحقق المطلب الأدنى من أهميته انتمائه إلى هذا الجذم فيعدد فضل قبائل اليمن على غيرها وسيادتها في الجاهلية وملوكها مثل النعمان ويدخل نفسه في الذكر لما يريد أن يقول ، فيذكر من النسب الذي جعله مرجع الفضل ويزعم ما يشاء له خياله من الصلات فيعلنها للناس قائلا(١):

قبائل من غسان تسمو بعامر إذا انتسب والأزد بعد الجوامع

أدان لنا النعمان قيسا وخندقا أدان ولم يمنع ربيعة مانع

ويأخذ عبيد بن الأبرص في مباشرة المعنى من الانتماء ويفسر رأيه الذي يرد به على خصمه بلغة ناهية زاجرة تحمل مقتضيات التهديد المباشر محذرة من قسوة العقوبة وتسلط الذات فيقول (٢) :

إذهب إليك فإني من بني أسد أهل القباب وأهل الجرد والنادي

فجمع في شطر بيت واحد مقومات السيادة كلها عند العرب وهي القوة فعبر عنها بالقباب والشجاعة وشدة المراس ، والفروسية وأشار إليها بالجرد الجياد ، والكثرة والكرم والبذل والعطاء وأشار إلى كل ما يجمع المروءة بالنادي حتى يفهم المقصود من الفخر .

والأفوه الأودي شاعر يعتز بانتمائه إلى اليمن ومذحج وهي لهزمة من لهازمها وقمة من قمم السيادة فيها فيذكرها ويعوض بخصومتها مع العدنانية الجذم الثاني للعرب ويذكر سنن الفضل الذي لحيه بني مذحج ويقابل ذلك بما لدى نزار فيقول(٣):

(١) قصائد جاهلية ، ص ١٢٤ .

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ، ص ٤٩ .

(٣) ديوان الأفوه الأودي ، ص ١٣ .

سُنّة أورثها مذحج قبل ان ينسب للناس نزار

والاشارة هنا واعية لمواد تاريخي ومرجعية مدركة فهو يذكر قدم مذحج وعراقتها في التاريخ ومجدها المؤثل وماضيها في القديم البعيد قبل أن يوجد شئ اسمه نزار ، ونزار محدث في الوجود التاريخي فهو لا يرقى إلى المكانة التي لليمن ولا يصل إلى العمق التاريخي الذي ينتمي إليها وقد عرف كيف يستغل واقع المفهوم العام عند السامع فيمجد قومه بماضيهم ويشير في البيت نفسه إلى قرب عهد النزارية في الوجود والتكوين . إن انتماء الشاعر واصراره على تحديد مكانه من الهرم الاجتماعي غرض مراد لذاته ووسيلة يحقق فيها معنى الذات التي يتحدث عنها فلا يبعد عن ضروراتها الطبيعية وتكوينها الذي يحرص على بقائه مستمراً في وجدان الناس بحبيه ويعيشه ولا يغفل مكانه الشخصي من نقطة الضوء المنعكس على ذاته وعلاقته بالأحداث من حوله فلا يضعف قوته ولاتتذبذب شخصيته يقول الأقوه الأودي (١):

وآخذ حقي من رجال أعزة ولو كرمت أعراقهم والمناسب

إن المعنى الذي عرضه الأقوه الأودي في بيته يدل على الاعتداد بالشخصية الفردية وبعد الأنا الذاتي مؤثراً قادراً على الاستمرار والحياة وبحسب القوة في حسبان التأثير فإذا استطاع صد الأقوياء القادرين وأهل النسب العالي الرفيع وصرفهم بقوته عن ظلمه أو الاستهانة بحقه كان فخوراً بنفسه مستعداً للمواجهة مع الواقع الاجتماعي الذي يقيس موضع الإنسان بمقياس قدرته وتأثيره ، وشاهد آخر على ما نقول يرد في بيتين لأميه بن أبي الصلت يأخذان جدلية الخصومة في الذات ويدفعان الخمول عنه ويبعدان الاستخذاء منه فيقول (٢) :

فإما تسألي عني لُبيني وعن نسبي أخبرك اليقينا

---

(١) ديوان الأقوه الأودي ص ٧ .

(٢) ديوان أمية بن أبي الصلت ، ص ٢٩٧ .

ودعمي به يكنى إياد إليه تنسّبي لو تعلمينا

ويستزيد من تقرير الحديث عن قدم محتده وصلابة معدنه فهو القديم الباقي والمستمر الحي في أذهان الناس الذي لا بنسوته . وماذاك إلا لانتمائه إلى أبعد الأنساب والأجداد فيذكر نسبه كما يجب أن يذكر ، فيقول (١):

جدي قسيٌّ إذا انتسبت ومنصور بحق وبقدم القدم

وعامر بن جوين الطائي يعزز مكانه ويحدد منزله في قومه ويزعم أنه وسط فيهم منسوب إليهم لا يختل في فضله ولا يطلب أحد فيه عيباً وكأنه ينفي شبهات الدعاوى التي توجه إليه فيقول (٢) :

إنني غير الذي زعموا واسط في طيئ نسبا

ويمدح الأعشى الكبير بني عجل ويذكرهم بخصلتين الأولى النسب القريب الداني من الشاعر طبعاً والأخرى المجد القديم المؤثل الثابت ومدحه للقوم يستعيده لنفسه فهو القادر عليه لا ينفك عنه ولا يبعد منه فيقول في ذلك (٣) :

فأبلغ بني عجل رسولاً وأنتم ذوو نسب دانٍ ومجدٍ مؤثل

وطرفه بن العبد يحاول ما حاول الشعراء مثله فينسب ممدوحه إلى ذؤابه المجد القبلي ويضعه حيث السمو والارتقاء المعنوي فيقول فيه (٤) :

من بني بكر إذا ما نسبوا وبني تغلب ضرابي الهُبَمْ

وكثير عزة عرف بمدحه بني أمية وحبه لهم وحسن أشعاره التي ساقها فيها يسوق من وصف مكارم القوم ومحامدهم وما يضفي عليهم من حسن الثناء إن في أخلاقهم أو في أفعالهم وحتى انتماءاتهم يحسن وصفها ويعطي شعره صورة

---

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت . ص ٢٩٧ .

(٢) قصائد جاهلية نادرة . ص ١٨٣

(٣) ديوان الأعشى ، ص ٥ ٤ .

(٤) ديوان طرفه بن العبد . ص ١١١ .

... وبعبارة أخرى سماع واقعة الحديث إذ كل مايصف وهو يمدح بني أمية يعبر عن حرارة العاطفة وصدق الشعور ، ويتجاوز بمدحه إياهم مواقف الولاء لآل البيت التي عرفت عنه . وقد مدح بشر بن مروان وأحسن نسبته واتسابه فقال فيه [1] :

بطاحي له نسب مصفى وأخلاق لها عرض وطول

هذه الاخلاق ذات العرض والطول امتدت إلى النسب المصفى البطاحي الذي تفخر به قريش وتجعله مصدر اعتزازها عندما ينتسب بعض قبائلها إلى بطحاء مكة لا ظواهرها .

ومدح سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان بمدحة مشابهة لما مدح بشراً به فقرر النسب والانتماء والإرث في المجد البعيد لتستقيم عناصر الفضل له ويقوم الأداء الصحيح بالاستدلال على مروءة الممدوح وفضله بتحقيق الصلة بينه وبين البعد النسبي مع مصدر المجد في رأي الشاعر فقال فيه [2] :

إذكر سعيدا ، خلات سيتن له ميراث والده والعرق منتسب

يا ابن الأكارم والمحمود سعيهم وابن الذي عرقبت في قتله العرب

ولا أدري كيف وفق كثير إلى لطف هذا المعنى على الرغم معارضة الواقع لمعتقدات العرب فيما حدث . وقتل عثمان رضي الله عنه عقوبة نزلت بالعرب . إلا أن الطرافة جاءت في زحزحة دلالتها في رأيه لصالح ممدوحه وهو أمر لا يخفى لطفه وحسن تأتيه لمعناه وتغييره ليكون مدحاً ويصبح ثناء ويصلح ذكرا جميلاً فنجح ووفق إلى التخلص المناسب .

والشاعر قادر على أن يصنع هذا الصنيع ويغير النظر ويُحسِّنُ الأمر فيحسن أو يُقبِّحُهُ فيقبح ولاريب أن بلاغة الشعر غالبة على الأفئدة مؤثرة في الألباب وحسبنا شاهد بذلك أن الرسول كان أول المتأثرين ببلاغة العرب وإخراجهم

---

(1) ديوان كثير ، ص ١٢ .

(2) ديوان كثير عزة ، ص ٢٧١ .

للمعنى من مدلوله إلى ما يمكن قبوله ، وقد نسب له قوله : « إن من البيان لسحرا » عندما سمع حديثاً حاول صاحبه تغيير ما وقر في الألباب وخلص من خطأ المخالفة في قوله الأول ومعناه السابق إلى قول آخر ومعنى مجانب (١) .

وليس الانتماء في لغة الشعر وعند الشعراء مستمراً على التعميم والشمولية للأنساب العليا والقبائل ذات الانتشار الواسع ولكنه يأخذ ضمن أطر التكوين الشامل في ذكر البيوتات الضخمة في القبيلة ويعطي لها قيماً اجتماعية خاصة ويوفر في الحديث عنها أمجاداً لها في إطار التكوين العام الشامل الذي لا يتغير في صورة التركيبة الأسرية ولكنها تأخذ جانب البعد النسبي في تحديد بيوتات العرب حتى لو كانت القبيلة كلها مشاركة في المجد لا تقصر عنه ولا تبتعد منه . وهذا ذو الرمة يخص بيوت تميم ويذكر فضلها ويسمي الفضائل العليا ذات الشرف والسيادة فيها وهو بذلك يعطي وجهاً آخر من وجوه الحمد لقومه ولا يعد تقصيراً ولا نقصاً في البطون الأخرى والقبائل التي تنتمي إليها تلك البطون المذكورة فيقول (٢) :

يعد النسابون إلى تميم بيوت العز أربعة كبارا
يعدون الرباب لها وعمرا وسعدا ثم حنظلة الخيارا

وكذلك يفعل الأخطل فعل ذي الرمة في قومه تغلب فيصف بطونا منها بالفضل عليها ويذكرها بما في أهله من الحمد ولا يغضب من ذلك أحد أو يستهجنه مادام الفخر والذكر الحسن شيء متحقق لهؤلاء الذين يذكرهم ويثني عليهم خاصة بعد أن يتحدث عن عموم القبيلة ثم يخص بطوناً منها وقد ذكر في هذه الأبيات بطوناً من تغلب بل أشهر بطونها الذين يتنازعون السيادة فيها

---

(١) انظر الحديث عن قصته «ص» مع عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر في حديث مشهور مستفيض في هذا الجانب في شعر عمرو بن الأهتم ، ص ٦٥ .

(٢) ديوان ذي الرمة . ج ٢ ، ص ١٣٧٧ .

فقال(١) :

ظعائن إمّا من هلال ذؤابة هجان وإمّا من سراة الأراقم

إذا بحثت أنسابهن لسائل دعون عكّيا أو بجير بن سالم

نخلص إلى علاقة مطردة بين الانتماء البعيد العالي في سلسلة النسب والإرث الخاص للبيوت ذات الشرف والسيادة في القبيلة كلها وما يحرص عليه المادح من صور التكامل في جانبي التعبير عن العلاقات والولاء والانتماء في كينونة العربي وذات نفسه وهو لا يبعد عن محور الارتكاز في ما يدعيه لقومه إن كان الحديث عن قومه أو لممدوحيه إن كان الحديث مدحاً وذكراً وفضلاً يريد تحقيقه وإظهاره للناس . وقد صار الشعر منذ عصوره القديمة نموذجاً للادعاء وتحقيق الانتماء وبناء جسور الربط بين البطون والأفخاذ والعشائر الضاربة في أعماق الفهم البعيد إذ يحصل بينهم روابط تتأصل وتقوي كل ماقام شاعر بإحيائها أو مصالح مشتركة تعيد إلى الأذهان أهمية القربى والاتصال فيحسن الشاعر اهتبالها واستغلالها لصالح موقف من المواقف حتى يكيف الظروف الملائمة ويملأ فراغ الواقع بالنسب ويضفي على الروابط القوية طابع القرابة وليس ثمة قرابة أقوى من الانتماء إلى جد مشترك يقر بأبوته كل الذين يخاطبهم الشعراء بلغة التقرير والاعتراف بالصلة القريبة فيحسن العرض لما يريد اقناع الآخرين به ويعيد فيه ثم يأخذه عنه شاعر آخر ورأو غيره فيعيد فيه ويزيد من حيثياته ويباعد في تصوراته لقيام الانتماء ثم دمج المتفق عليه عندهم في هيكل الكتلة العصبية التي يقوم عليها بناء الوحدة الكاملة للخلايا الاجتماعية الصغيرة ويعاد إلى هذه الخلايا فتشكل كتلاً أكبر حجماً وأكثر عدداً ويبقى الشاعر يضع في شعره عوامل التقارب والاتصال فيما يفوه به من الشعر أو يتحدث فيه من القربى وقد نظر النسابون في علائق النسب في القديم من الزمن وفي الحديث منه فأخذ الشعراء

---

(١) شعر الأخطل . ص ٥٧٣ .

عنهم الاسماء والانساب ودلالتها وسخروها لتشكيل التحالفات القبلية وصلاتها القديمة فعززوها في الشعر في هذا المجال فاستدل النسابون والمؤرخون على العصبية بدلالات الشعر القديم ومايزعم الشاعر فيما يذكر من نسب وانتماء فقالوا (١) : إن عدنان وهو أحد الجذمين الكبيرين الذين انقسم عليهما العرب في نظرية الانساب منذ بدأت لم يذكر في التاريخ القديم ولم يشر إليه القدماء من مؤرخي اليونان والرومان والعهد القديم وإنما ورد ذكره في بيتين من الشعر الجاهلي أحدهما منسوب للبيد العامري وهو شاعر أدرك الإسلام وعاش فيه دهراً وذلك قوله :

فإن لم تجد من دون عدنان والداً ودون معد فلتزعك العواذل

والآخر للعباس بن مرداس وهو شاعر أدرك الإسلام وشارك في أحداثه وكان من قواده البارزين وقد ذكر عدنان بقوله :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا بذحج حتى طردوا كل مطرد

فصار الشعر أقوى دلالة في إثبات النسب . بل إن نزار كما تذكر كتب الأقدمين لم يرد له ذكر في مأثور العرب الجاهلي إلا في بيت واحد ليشر بن أبي خازم (٢) . وهو أيضاً ممن عاش قبيل البعثة بفترة قصيرة إذ يقول :

مضى أسلاف حتى نزلنا بأرض قد تحامتها نزار

وقد أصبح نزار والنزارية في القرن الأول من الإسلام أكبر الأحلاف ومع فجر الإسلام وماتلى من تغيير ديموغرافي كبير قويت الذاكرة ونشطت في خلق حجم معقول لتشابك الأواصر والأنساب فوجد بالضرورة الانتماء والإحساس به وبدأ يأخذ مساره في وجدان القبائل العربية وعلى ألسنة شعرائها فأوردت القصائد الطوال كماً هائلاً من الشعر الذي يعرض هذا البحث جزءاً منه ينبض في قوة الفخر

---

(١) انظر العصبية القبلية وأثرها في شعر بن أمية . ص ٣٨

(٢) انظر العصبية القبلية . ص ٤١

والانتساب ويعلن مكان الفخر بالآباء في قمة الصدارة الاجتماعية والمعنوية ووردت فيه أسماء الأجداد والأحلاف التي كونت العصبيات الكبرى في الإسلام مثل العدنانية والمضرية أو النزارية والقيسية وخندف والقحطانية وغيرها مما حفل الشعر بذكره والحديث عنه والانتماء إليه والفخر به .

ذكر الآباء خاصة ،

قبل الانتماء البعيد في النسب لابد أن يكون الشاعر قد حقق انتماءه الخاص وفخر بحريته هو دون غيره واعتزى بآبائه الأقربين وحدد مكمن قوته في قومه أو في الذين سيتعرض لهم في شعره إما مادحاً أو قادحاً . وما الانتماء البعيد إلا خطوات سبقها الصعود في درجات هرم النسب الذاتي حتى استقرت في قمة الهرم الأعلى ، وبناء النسب يقوم على التدرج الموضوعي ويجعل التكوين الأقرب أوضح المعالم في تشكيلة الانتماء الشامل كله وفي النسب القريب تكون السيادة في القبيلة وفي المجتمع وقلما تأتي ارتجالية أو ابتدائية حتى وإن وجد من الرجال من يبدأ يضع لنفسه مجداً حادثاً ويرتفق السيادة بنفسه وشرف ذاته إلا أنه لا يكون له في الفخر مثلما يكون لأهل المجد المؤثل ولا أدل على ذلك من تسمية من هذا شأنه « نبيته » وهو معنى يدل على بروزه دون امتداد جذور تاريخية بعيدة . أما الشرف الموروث والمجد المؤثل فهو الأظهر عند العرب وقد سموا من يرث السيادة من بيوتات العرب وعدوها وذكروا رجالها(١) . وفخر عامر بن الطفيل بأنه جمع لحسنيين وراثة المجد عن الآباء وملكة السيادة والقيادة في نفسه وفي طبيعة تكوينه الذاتي وقدراته المكتسبة لا وراثة منقادة إليه فقال(٢):

فإني وإن كنت ابن فارس عامر ... وفي السرّ منها والصريح المهذب

فما سوّدتني عامر عن وراثة ... أبى الله أن أسمـــو بأم ولا أب

---

(١) الكامل ، جـ ١ ص ٧٨ .

(٢) ديوان عامر بن الطفيل ، ٢٨ .

ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمقنب

ومن الطبيعي أن يكون الفخر بالانتماء القريب أولى من المدح بالانتماء البعيد ولم يغفل الشعراء عن ذلك ولم يخلوا الشعر من هذه الظاهرة فقد مدح كثير عزة في القرابة واحتذاء الأبناء فضل الأباء فقال فيمن مدح (١) :

جنى لأبي حفص ذرى المجد والد بنى دونه للبانيين صعـــوب

فهذا على بنيان هذاك ببتـــني بناه وكل منجب ولجيـــــب

وجد أبيه قد ينافي على البـــنا بناه ، وكل شب وهو أديـب

فأنت على مناجهم تقتدي بـــهم أمامك ماسدوا وأنت عقيـب

فأصبحت تحذو من أبيك كما حذا أبوك أباه فعله فتصيـــــب

وأمسيت قلبا نابتا في أرومـــة كما في الأروم النابتات قلوب

وأنت المنقى من هنا ثم من هـنا ومن هاهنا والسعد حين تؤوب

وجاء قول ابي نواس مشابه في المراد من النسب القريب والرشائج الأولى فقال يمدح أيضاً (٢) :

إن من ساد ثم ساد أبوه قبله ثم قبل ذلك جده

وقد لجأ عباس بن مرداس في احتجاجه المشهور على تفضيل النبي (ص) لبعض أنداده عليه في العطية فقارن أباه بأباء الذين فضلوا عليه وجعل أباه مثلهم أو خيرا منهم وانتمى إلى مرداس أبيه وعرّض بالآخرين وبأبائهم قائلاً (٣):

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عينيه والأقرع

فما كان حصن ولا حابس يفوقان مدراس في مجمع

إن فخر الرجل بأبيه هو الجلي الواضح في هذين البيتين وغيره كثير عند

---

(١) ديوان كثير ، ص ١٦٧ .

(٢) ديوان أبي نواس ، ص ٤ . وانظر خزانة الأدب ، جـ ١ ، ص ٣٧ .

(٣) ديوان عباس بن مرداس ، ص

الشعراء الذين يجعلون الفخر الأول للأبوة القريبة والانتماء إليها فيقول جرير في ممدوحه (١) :

فيا ابن الأكرمين إذا نسبتم وفي الأثرين إن حسب العديد

ويقول عن ممدوح آخر (٢) :

وقد وجدوك أكرمهم جدوداً إذا نسبوا أثبتهم مقاما

ولا يقتصر الفخر والانتساب إلى الآباء والأجداد من الأصلاب دون الانتماء والفخر بالأم وذكرها في مجال المدح والفخر فتنسب الرجل إلى أمه ويمدح باسمها وذكرت مع أبيه وجمع بينهما بل قدم نسب الأم على نسب الأب في بعض الشواهد كما في مدح جرير لعمر بن عبد العزيز الخليفة العادل إذ يقول (٣) :

إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى ومروان الذي رفع العمادا

لأن جد عمر بن عبد العزيز لأمه هو عمر الفاروق وأبوه عبد العزيز بن مروان الذي كان هو الآخر يمدح بأمه ليلى كناية حتى عرف الشعراء عنه حبه لذلك فأكثروا مدحه ونسبوه إلى أمه ليلى كما جاء في قول نصيب (٤) :

يقول فيحسن القول ابن ليلى ويفعل فوق أحسن ما يقول

ومدحوا كثير عزة وذكر أمه وانتماءه إليها في مثل قوله أيضاً (٥) :

ولولا الله ثم ندى ابن ليلى وأني في نوالك ذو ارتغاب

ونازعني إلى مدح ابن ليلى قوافيها منازعة الطراب

---

(١) ديوان جرير ، ص ٢٩١ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٢٢٤ .

(٣) ديوان جرير ص ١١٨ .

(٤) ديوان نصيب بن رباح

(٥) ديوان كثير ، ص ٢٧٩ .

وقال فيه أيضاً (١) :

إليك ابن ليلى تمتطي العيس صحبتي ... ترامى بنا من مبركين المناقل

تلفعها دون ابن ليلى وشفها ... سهاد السرى والسبسب المتماحل

وأنت ابن ليلى خير قومك مشهدا ... إذا ما اخمأرّت بالعبيط العوامل

ومدح القطامي اسماء بن خارجه وأكثر في مدائحه له من ذكر انسابه إلى أجداده وأبائه الآخرين وخص أمه بالذكر وصرح باسمها مادحاً فقال (٢) :

مفداة بنت الحصن أمك فانتسب ... إلى النسب الرابي الرفيع الدعائم

وكذلك يمدح بني دارم ويذكر فضلهم وانتسابهم إلى الأبوين فيقول (٣) :

وماضرّ منسوبا أبوه وأمه ... إلى دارم ألا يكون لهاشم

وقد قرن الشعراء ذكر الأب والأم على حد سواء في ملاحقة الانتماء والفخر به كما جاء في قول كثير (٤) :

أتزعم أني من كنانة والدي ... وما لي من أم هناك ولا أب

وكذلك يفعل عمر بن أبي ربيعة فيذكر الأم وأباها وأعمامها ومن ينتمي إليهم من أقربائها فيقول (٥) :

أبو أمها أو في قريش بذمة ... وأعمامها إما نسبت ثقيف

ويفخر عنترة بانتمائه إلى سيفه ورمحه وجواده ويضع آلات حربه وعدة قتاله موضع الأم والأب له ويعزو فخره بهم كما يفخر الرجل ذو المجد بنسبه من كلا

---

(١) ديوان كثير ، ص ٢٩٣ .

(٢) ديوان القطامي ، ص ٧١ .

(٣) ديوان القطامي ، ص ١٧٩ .

(٤) ديوان كثير ، ص ٢٣٥

(٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة ، ص ١٣٦

جانبيه (١) :

جوادي نسبي وأبي وأمي حسامي والسنان إذا انتسبنا

وقد استمر الشعر في ذكر الأنساب على ألسنة الشعراء يمدحون بالنسب العالي الرفيع ويفخرون بما يجلب الفخر لهم من صور الاقتراب إلى المجد القبلي الباذخ فيخص الشاعر نفسه بنسب قريب من الآباء والأجداد والعشيرة القريبة وقد يرتفع في مكان آخر إلى جذم القبيلة البعيد كل البعد عنه وماذاك إلا لما يريد هو من الانتساب وما يعتمد عليه مراد الشاعر فيما يذكر من الشعر مدللاً على شعوره بالانتماء وحاجته إليه ولاسيما إذا ذكر الفخر والتحدي لأمجاد القبيلة كما يقول الأعشى (٢) :

ونحن أناس عودنا عود نبعة إذا انتسب الحيان بكر وتغلب

ويقول في موضع آخر في المعنى نفسه (٣) :

ألسنا نحن أكرم إن نسبنا وأضرب بالمهندة الصفاح

أو يمجد نفسه ويخص أهله ويؤكد القرابة والصلة فيمن يريد أن ينتمي إليهم من الأفخاذ أو البطون والقبائل كما يقول حسان بن ثابت (٤) :

وسطت نسبتي الذوائب منهم كل دار فيها أب لي عظيم

ويفخر النميري بنفسه وذكره ويصف شهرته ومعرفة الناس له وارتفاعه في الخافقين فيقول (٥) :

إن يعرفوني فمعروف لذي بصر أو ينسبوني فعالي الذكر مشهور

---

(١) ديوان عنترة ، ص ١٧٦ .

(٢) ديوان الأعشى ، ص ٢٥٣ .

(٣) ديوان الأعشى ، ص ٣٩٧ .

(٤) ديوان حسان بن ثابت ، ص ٤٣٤ .

(٥) ديوان الراعي النميري ، ص ١٤٣ .

ويمدحون بتقارب الانساب وبصلة الانتماء المباشرة غير البعيدة لما في ذلك من الانصهار في أهداف مشتركة كل منها يحقق أغراض الشاعر ويخدم الجماعة التي تتصل به في النسب القريب فيكون تفاعله مع ذلك أقوى وأكرم كما في شعر ساعدة بن جؤية إذ يقول (١) :

متقارب أنسابهم وأعزة توقي بمثلهم الظلام وترهب

ويشرح الشاعر ما يحس به الذين لا ينالون شرف النسب عندما تذكر الأنساب فيقلق الذين لا نصيب لهم فيها ويخشون المعرة ويخافون عقابيل الانتساب . أما الشاعر الواثق من انتمائه وعلو محتده وفضل نسبه في الملأ فلا يساوره ذلك القلق ولا يخشاه وقد عبر ساعدة ابن جؤية عن هذا الهاجس بقوله(٢):

ولا نسب سمعت به تلاتي أخاطله أميم ولا خليل

فهو واثق بفضل انتمائه ألا يقلق من الذكر في الناس إذ لا يعيبه أحد ولا يخشى من أحد مهما بلغت العداوة والشحناء . فانتماؤه حصن يقيه ويقي عرضه ويبعد به عن اللوم .

فلا يشعر بغضاضة الانتماء أمام الناس ولا يخزى عندما يذكر مجد الآباء والأجداد . ولا يلجأ الشاعر إلى التحقيق في انتمائه إلا حين يفخر بمجده ويكاثر بعدده ويعتد بأصالة نسبه وفضائل نفسه ويدعي ما يجب أن يعرفه الناس له فيحشد لذلك ما يستطيع من الشواهد والأفعال ويحتفي بذلك أيما احتفاء ويجتهد أيّما اجتهاد حتى لا ينكر عليه ولا يكذب فيما يزعم وعندئذ يتحقق الغرض من الفخر والانتماء بالاقرار بما يدعي .

---

(١) ديوان الهذليين جـ ١ ص ١٨٤

(٢) ديوان الهذليين جـ ١ ص ٢١٣

معركة الانتماء :

مادام الحديث عن النسب والانتماء قد أخذ جوانب كثيرة مما سلف من الصفحات في هذا البحث وعرض مبررات النسب وقيمتها عند العرب واهتمامهم بأنسابهم وما يفخر به كل منهم عندما ينازل أقرانه في معركة الانتماء الواسع للقبائل الكبيرة والعشائر التي تلقي جزءاً من المهابة على أنسابها وأحسابها .

فإن هذه القيمة المعنوية للنسب ستولد الرغبة لدى الناس كافة بأن ينتموا إلى الأنساب التي لها شأن في المجتمع القبلي ويتعلقوا ببعض العشائر والبطون ذات الشرف والسيادة بالحلف أو الاتحاد معهم ويشاركونهم أنسابهم فيقر لهم ذلك ولا ينكره أحد عليهم حتى يحدث الهجاء ويثور الجدل بين القبائل ويدخل الشعراء في الحلبة حمية لقبيلة ضد أخرى وتشب نار الهجاء بين الحيين أو بين الشاعرين عند ذاك تشتد معركة الأنساب ويقوى أوارها وتلتحم الكلمات فتثور النخوة ويعود الشعراء يتتبعون الأنساب ويبحث كل شاعر عما يمكن أن يجده من أقوال في انتماء خصمه الشاعر الآخر أو القبيلة التي يهجوها أو يختلق ما لم يسمع بمثله فيظهره في الناس ويجعل الطعن في الانتماء والتشكيك في الانتساب أقوى حججه لكسب المعركة ضد خصمه، فصارت معركة الانساب والانتماء إلى البطون والعشائر من أشد المعارك الهجائية التي بدأت منذ بدأت الحرب بين المدينة ومكة في أول العهد الإسلامي وقويت الاختلافات في الأنساب وتشابكت معارف العرب ثم انتهت بانتصار الإسلام فكف الهجاء وكفت معه الرغبة في الطعن في انتماء الناس فيما يدعون وصدقوا ما يدعيه المرء من انتماء حتى روى الأثر : « الناس مؤتمنون على أنسابهم ». وعندما خرجت العرب إلى الأمصار وأسلم من سكانها من ليس من العرب ظهرت إلى الوجود عملية الولاء أو الإلحاق بالنسب سواء كان ذلك على مستوى الأفراد أو الجماعات ليخلطوا من أسلم من غير العرب في بنية المجتمع الجديد ويتيحوا لهم فرصة الاندماج في التكوينات الاجتماعية الكبرى وأهمها القبيلة التي لم يعرف العرب أقرب منها شكلاً لقيام تكتلات جديدة تناسب

الاتساع الهائل لانتشار العرب في البلاد المفتوحة وحاجتهم إلى تكوينات كبرى في الإسلام على أساس فهم العرب الأول لطبيعة التكوين الاجتماعي والأحلاف ، فاتسع الخلاف في الانساب عندما حاولت كل قبيلة أن تضم إلى جانبها من تستطيع ضمه من القبائل الأخرى أو الموالي والأحلاف، إما بدعوى أن الجد الأعلى للقبائل هذه كلها واحد أو بدعوى الاحلاف والمصالح المشتركة. وأي ماكان الأمر فقد توسعت حرب الانساب في لغة الشعر ووجد الشعراء سوقاً رائجة للهجاء وللهجوم على خصومهم فبدأوا بما يضعضع قوة الخصم وانتماءه إلى أصله وصار بعض موضوعات الهجاء هو نفي ما يزعم الشاعر لنفسه من نسب إذ يقوم خصمه بتكذيبه فيما يدعي ونفيه من القبيلة التي ينتمي إليها فيرد الشاعر الآخر عليه بمثل قوله .

وقد أخذ الشعراء بالانكار على بعض المدعين للانساب ونفوا أن يكون انتماؤهم حقيقة وهذا بشر بن عليق الطائي ينفي أن تكون قبيلة عاملة ذات نسب في قبائل قضاعة ويثبت نسب كلب وبهراء والقبائل القضاعية الأخرى ويجعل عاملة لانسب لها . والسبب أن عامله قد أعانت كلباً وبهراء عليهم وهاجمتهم على أنها وكلب من جذم واحد ونسب أكيد فحاول أن يكذب هذا النسب ويضعف الانتماء فقال (١) :

أعامل ما بال الخنا تقذفونـــه ... من الغور مسدى بالقوافي وملحما
تلوذ بقوم لست منهم وتعـــتزي ... إليهم ولم تعصم من الذل معصـــما
قُبيلةُ بقّت وقلّ عديدهـــــا ... وذلّت فما كنتم تفيئون مغنـــما
وما أنت من أصل فتأمل نصـرة ... فأيقن وما أيقنت حتى تفهـــما
وتعلم أن لست إلى أصل معشر ... وأن لكم ثديا أجدّ مصـــرمـــا
وما أنت من كلب وبهراء فانتسب ... ولا القين فاقعد يا ابن مصّان مرغما

---

(١) نصائد جاهلية . ص ١٨٨.

فتتبع ذكر القبائل وشرع ينفي قبيلة الشاعر عامله من كل حسب ونسب ويبهرج انتماءها فخطأها فيما تعتقد حتى يسلب منها شرعية موقفها مع القبائل التي تعتقد أنها منها فتعينها ونتيجة ذلك تضعف صلتها فيضعف تحمسها للحرب مع تلك القبائل ضد قبيلته .

وحسان بن ثابت شن حرباً مبكرة في الإسلام على القبائل التي رفضت الانقياد والطاعة للدين الجديد وكانت ثقيف أشد المحاربين له وانضمت إلى قيس وادعت الانتساب إليها واجتمعت معها على الحرب فما كان من حسان إلا أن بدأ بخلخلة الانتماء وهزّ القناعة لدى هؤلاء وأكد أن ثقيفاً لا صحة لانتمائها إلى قيس بل لا صحة لانتسابها إلى معد فقال (١) :

وخلوا معدا وانتسابا إليهم ... بهم عنكم حقا ثناء ومزحل
وقول السفاء واقصدوا لأبيكم ... ثقيف فإن القصد في ذاك أجمل
فإنكم إن ترغبوا لا يكن لكم ... عن أصلكم في جذم قيس معول
وما لكم في خندف من ولادة ... ولا في قديم الخير مجد مؤثل

ويصول مرة أخرى على بني عوف بن عوف وينفي اتصالهم بقريش ويبعدهم من أخلاقها ويزعم أن قريشاً هي التي تنكر نسبتهم وصلتهم وتعزوهم إلى نسب العبيد واللؤم فقال فيهم (٢) :

سائل قريشا وأخلاقها ... متى كان عوف لها ينسب
أفي ما مضى نسب ثابت ... فيعلم أم دعوة تكذب
فإن قريشا ستنفيكم ... إلى نسب غيره أثقب
إلى جذم قين لئيم العرر ... ق عرقوب والده أصهب

ونفى حسان أيضاً نسب الوليد بن المغيرة من قريش وهجاه وتتبع أصله

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ص ٤٢ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ، ص ١١٨ .

حتى رأى أنه قد أخمله وأبعده من النسب الذي عليه يقاتل والقبيلة التي من أجلها يحارب فقال (١) :

حتى تنسب قريش أو تحصل ... فمالك في أرومتها نصاب
نفتك بنو هصيص عن أبيها ... لشجع حيث تسترق العياب
وأنت ابن المغيرة عبد شمس ... قد اندب حبل عاتقك الوطاب
إذا عدّ الأطايب من قريش ... تلاقت دون نسبتكم كلاب

ومثل ذلك في شعر حسان كثير كثرة مفرطة وهو دليل على قوة إدراكه لأهمية أصره النسب وقيام الحرب على ما تظنه القبيلة من قرابة وشائج صلات يوجب عليها أن تعين شركاءها في النسب ولهذا عمد حسان وغيره من الشعراء إلى التشكيك في أنساب أعدائهم حتى يضعفوا عامل الولاء ويضعف بضعفه العون والصمود في الحرب إلى جانب القبائل التي يوهن الشاعر صلتها في النسب ويدعي أن انتماءها خطأ ولا حقيقة له في الواقع . كان حسان من فرسان هذا النهج في هجومه على أعدائه فأكثر من الهجاء بالنسب الوضيع والعلاقات غير المتينة وشكك فيما يزعم أعداؤه من صلات القربى فيما بينهم وهو في كل ما يدعي محارب صنديد بلسانه وقدرته على تصوير الوهن في تلك الانتماءات والاحلاف . وقد أخذ جرير منهج حسان وهجم هجمات متكررة على خصومه مبيناً زيف الانتماء والنسب الذي يدعيه خصمه عمر بن لجأ التيمي فعمد إلى شمل تيم فشتته وأضعف انتماءها إلى قيم وقال فيها (٢) :

أتطلب سابق الحلبات تيم ... تقدم في المواطن إذ تجاري
صريحا لم تلد أبويه تيم ... ولم ينسب لأخت بني خدار
وقد علمت قيم أن تيما ... بعيد حين ينسب من نزار

---

(١) ديوان حسان بن ثابت . ص ١١٤ .

(٢) ديوان جرير . ص ٢٥٢ .

وقد هجاهم وأقذع في هجائهم فقال (١) :

ما بين تيم واسماعيل من نسب إلا القرابة بين الزنج والروم

إن ابن تيم لمنسوب لوالده داني القرابة من حام ويحموم

وعروة بن الورد يدعي ان نهدا غير مكافئة لانتساب أبيه إليها وأن مشاركة والده لها قد عرضه لضعة النسب وقد كان حسيباً ماجداً في غيرها من القبائل كما يقول (٢) :

لا تلم شيخي فما أزرى به غير أن شاركك نهدا في النسب

كان في قيس حسيبا ماجدا فأتت نهد على ذاك الحسب

ويقول أيضا :

مابي من عار إخال علمته سوى أن أخوالي إذا نسبوا نهد

وهجا ذو الرمة بني امرئ القيس وأسرف في هجائهم وأطال في تقبيح أفعالهم ثم تدرج إلى أنسابهم فنفاهم من كل نسب وأسقط انتماهم من العرب وجعلهم ملحقين بالانتساب معلقين كما تعلق في العسيب العصاعص كما يقول فيهم :

توصل منها بامرئ القيس نسبة كمانيط في طول العسيب العصاعص

ويقول أيضاً :

تبين نسبة المرئي لؤمها كما بينت في الأدم العوار

إذا نسبوا إلى العلماء قالوا أولاك أذل من حصب الجمار

وفي مقابل تشذيب الأنساب ونفي الهجائين لها وتقليلهم من شأن من يتعرض لهجائهم وطعنه في نسبه كان هناك من يجمع الناس ويستكثر منهم ويتزيد بعدد قومه ويضفي نسبه على كل من يريد أن ينضم إليه حتى بلغ

---

(١) ديوان جرير ، ص ٣٦٠ .

(٢) ديوان عروة بن الورد ، ص ١٣ .

ببعضهم الحرص على سعة أنسابهم وحشر الناس فيها أن يدخلوا الأعاجم ومن لا يمت إلى العرب برابطة مما جعل الشاعر يتهكم فيمن هذا صنيعه ويقول فيه(١):

زعمتم بأن الهند أولاد خندف ... وبينكم قربى وبين البرابر

وديلم من نسل بن ضبة باسل ... وبرجان من أولاد عمرو بن عامر

فقد صار كل الناس أولاد واحد ... وصاروا سواء في أصول العناصر

وقد يقر الشاعر نسب القبيلة التي ينتمي إليها خصمه إلا أنه يعمد نفي خصمه خاصة من ذاك النسب مكذباً صلته بالقبيلة أو قرابته من أبائه لأن صفاته ليست كصفاتهم مثلما زعم جرير في نسب سراقة البارقي حين هجاه ، وفي خصمه اللدود الفرزدق فقال :إن ادعاء سراقة إلى شنؤة زور وكذب وأن في ملامح الفرزدق ما ينفي انتماءه إلى أبائه وبقربه من غيرهم بالشبه فقال في الأول (٢) :

وإذا انتسبت إلى شنؤة تدعي ... قالوا : ادعاءُ أبي سراقة زور

ويقول في الثاني (٣) :

يبين في وجه الفرزدق لؤمه ... والأم منسرب قفا حين أدبرا

وقد عمد ذو الرمة الشاعر إلى هجاء الأعور الكلبي في نسبه القريب وانتمائه لأمه وأنكر مايدعي من النسب وباعد بينه وبين قبيلته وأخفى عليه حتى جعل صلته فيها كصلة الحيتان بالخلس فقال يهجوه (٤) :

وجدتك من كلب إذا ما نسبتها ... بمنزلة الحيتان من ولد الضب

وأخذ جرير قصب السبق إلى ذلك في أكثر هجائه وشعره الذي يبين فيه

---

(١) العقد الفريد ، جـ ٣ ، ص ٣٤٢ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٣٦٨ .

(٣) ديوان جرير ، ص ٤٨١ .

(٤) ديوان ذي الرمة ، جـ ٣ ، ص ١٧٧٣ .

سخطه وقدرته على أن ينتفي من شاء من كرامة النسب الذي يدعيه فيقول في عمر بن لجأ (١) :

أنت ابن برزة منسوبا إلى لجأ عبد العصارة والعيدان تعتصر

ويهجو الراعي النميري عدي بن الرقاع فينفي ان تعرف قضاعة له نسبا أو تقر له انتماء وكذلك نزار إذ تجاذب قضاعة النسب إلى اليمن مرة وإلى نزار أخرى فسهل عليه أن ينفيه من كلا الحيين حتى لا يبقى له أملاً في الانتماء إلى أحد فيقول (٢) :

تأبى قضاعة أن ترضى دعاوتكم وابنا نزار فأنتم بيضة البلد

كل هذه الأمثلة على ما فيها من حدة هجاء الشاعر وعدوانه على خصمه ومحاولة تكذيبه في أعز ما يملك وما ينتمي إليه وهو النسب الغالي يبين دلالات خاصة في الذهن العربي وعند الشاعر الذي يلجأ إلى الهجاء وسيلة انتقام فيحدد نقاط الضعف فيمن يريد أن ينقض عليه ثم يهاجمه في النقطة التي يراها أقرب إلى أضعاف مقاومته والتصدي لهزيمته . والنسب القريب هو أول لبنات البناء الذي يهدمه الشاعر ويهجر به وإذا استطاع أن يصيب من يريد الهجوم عليه فهو عندئذ استطاع أن ينهض بجزء من مسئولية الكفاح ويخطو الخطوات الأخرى في سبيل الدفاع إن كان في موقف الدفاع حتى يضعف خصمه أمام هجومه . والنسب وسائل هجوم مناسب تصيب في الصميم وتهز قناعات الناس بما يدعون من انتماء إلى القبائل أو الآباء وقد اتخذ الشعراء من الأعراف الاجتماعية وسائل ينالون بها مما يعتقده العرب من صلات يؤمنون بها ويقدسونها ولا يشكون بصحتها أو يقبلون مناقشتها . حتى يحرك الغضب لسان الشاعر ويثيره سبب من أسباب الخلاف فيصول صولة الموتور ويثأر من خصمه وينتقم منه بأن يدنس نسبه ويبعده

---

(١) ديوان جرير ، ص ٢١٣ .

(٢) ديوان الراعي النميري ، ص ٣ . ٢ .

من الشرف المطلوب . أو يثور مفاخراً بنسبه وحسبه من الآباء والأجداد فيعدد من ذلك ما لا يحصى من صور المبالغة والتعالي ويزعم أن آباءه كرام فرسان أجواد ويحصر كل خصال المروءة والمجد فيهم ويوقفها عليهم وما هو إلا أحد فروع ذلك المجد الأشم فيثني ويزيد من الثناء ويزين ما يقول وما يفعل فلا يشعر بما يضفي على نفسه وعنصره من صور المبالغة مادام الحديث عن نفسه أو نسبه أو فخراً بقبيلته كل ذلك مقبول في مذهب الشعر وعند الشعراء .

جمهرة أنساب العرب :
تأليف : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي
تحقيق : عبد السلام هارون
الطبعة : الرابعة ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٢ م .
الناشر : دار المعارف بمصر .
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب
تأليف : عبد القادر بن عمر البغدادي
تحقيق : عبد السلام هارون
الطبعة : الثانية
الناشر : الهيئة المصرية للكتاب
ديوان الأعشى ، ميمون بن قيس
تحقيق : محمد محمد حسين
التاريخ : ١٩٧٤ م
الناشر : دار النهضة العربية للطباعة والنشر
ديوان الأقوه الأودي ، (مجموعة الطرائف الأدبية) :
تحقيق : عبد العزيز الميمني
الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت .
ديوان أمية بن أبي الصلت
تحقيق : بهجة عبد الغفور الحديثي
التاريخ : ١٩٧٥ .
الناشر : وزارة الاعلام ، بغداد
ديوان امرئ القيس :
تأليف : محمد أبو الفضل ابراهيم
الطبعة : الرابعة .

الناشر : دار المعارف بمصر .
ديوان أوس بن حجر :
تحقيق : محمد يوسف نجم
الطبعة : الثالثة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
الناشر : دار صادر ، بيروت
ديوان جرير :
تحقيق : نعمان محمد طه
الناشر : دار المعارف بمصر .
وينظر الديوان نفسه طبعة صادر
ديوان جميل بن معمر العذري
تحقيق : حسين نصار
الطبعة : الثانية ١٩٦٧ م
الناشر : مكتبة مصر القاهرة
ديوان حسان بن ثابت
تحقيق : سيد حنفي حسنين
التاريخ : ١٩٧٤ م
الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
ديوان الراعي النميري :
تحقيق : راينهرت فايبرت
الطبعة : الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م
الناشر : دار فرانتس ، بيروت .
ديوان ذي الرمة
تحقيق : عبد القدوس أبو صالح
التاريخ : ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الناشر : مؤسسة الإيمان ، بيروت .
ديوان سراقة البارقي.
تحقيق : حسين نصار
التاريخ : ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م
الناشر : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
ديوان سلامة بن جندل
تحقيق : فخر الدين قباوة
الطبعة : الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م .
الناشر : المكتبة العربية - حلب
ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي :
تحقيق : سليمان جمال
الناشر : مطبعة المدني .
ديوان طرفة بن العبد
تحقيق : درّية الخطيب ولطفي الصقال
التاريخ : ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م
الناشر: مجمع اللغة العربية بدمشق
ديوان الطفيل الغنوي
تحقيق محمد عبد القادر أحمدالطبعة الأولى ١٩٦٨ م
الناشر : دار الكتاب الجديد .
ديوان عامر بن الطفيل :
نشر : كرم البستاني
التاريخ : ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
الناشر : دار صادر ، بيروت
ديوان عباس بن مرداس :

تحقيق : عبد الله عبد الرحيم عسيلان
الناشر : دار المريخ الرياض
التاريخ : ١٩٧٨ م
ديوان عبيد بن الأبرص
تحقيق : حسين نصار
الطبعة الأولى ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م
الناشر : مكتبة مصطفى البابي الحلبي ، بمصر
ديوان عروة بن الورد :
تحقيق : كرم البستاني
التاريخ : ١٩٥٣ م
الناشر : مكتبة صادر ، بيروت .
ديوان عمر بن أبي ربيعة
تحقيق : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
التاريخ : ١٩٧٨ م
الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب
ديوان عنترة
تحقيق : كرم البستاني
الناشر : دار بيروت للطباعة والنشر ، انظر تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي .
ديوان قيس بن الخطيم،تحقيق : ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب .
الطبعة : الأولى ، ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م
الناشر : مطبعة العاني ، بغداد .
ديوان قيس بن الخطيم
تحقيق : ناصر الدين الأسد

الطبعة : الثانية ، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م
الناشر : دار صادر ، بيروت .
ديوان كثير عزة
تحقيق : إحسان عباس
التاريخ : ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م
الناشر : دار الثقافة ، بيروت .
ديوان القطامي
تحقيق : ابراهيم السامرائي وأحمد مطلوب
الطبعة : الأولى ، ١٩٦٠ م
الناشر : دار الثقافة ، بيروت .
ديوان أبي نواس
تحقيق : محمود كامل حديد .
التاريخ : ١٩٥٦ .
الناشر : المكتبة التجارية الكبرى القاهرة
ديوان الهذليين
تحقيق : أحمد الزين ، ومحمود أبو الوفاء
التاريخ : ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة .
شرح ديوان الحماسة
تأليف : أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي
تحقيق :أحمد أمين وعبد السلام هارون
الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م
الناشر : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
شعر الأخطل

تحقيق : فخر الدين قباوة
الطبعة : الثانية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م
الناشر : دار الآفاق الجديدة ، بيروت .
شعر خفاف بن ندبة
تحقيق : نوري حمودي القيسي
التاريخ : ١٩٦٧ م
الناشر : مطبعة المعارف ، بغداد
شعر المثقب العبدي
تحقيق : محمد حسن آل ياسين
الطبعة : ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م
الناشر : مطبعة المعارف ، بغداد .
شعر هدبة بن الخشرم العذري
تحقيق : يحيى الجبوري
التاريخ : ١٩٧٦ م
الناشر : وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق
قصائد جاهلية نادرة
تحقيق : يحيى الجبوري
الطبعة : الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
الناشر : مؤسسة الرسالة ، بيروت .
العقد الفريد :
تأليف أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
تحقيق : أحمد أمين وأحمد الزين ، وابراهيم الأبياري .
التاريخ : ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م .
الناشر : لجنة التأليف والترجمة والنشر .

الكامل :
تأليف : محمد بن يزيد المبرد .
تحقيق : محمد أحمد الدالي .
الطبعة : الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م
الناشر : مؤسسة الرسالة ، بيروت .
لسان العرب المحيط
تأليف محمد بن منظور
الناشر : يوسف خياط